الأحكام المرضية

من

الشمائل المحمَّديَّة

حَـوَتْ ما يزيـد على مئة شميلة منتقاة من كتاب
الجامع الصغير وغيره من كتب الحديث المعتمدة

انتقاها وشرحها فضيلة العلامة الدمشقي الشيخ



(رحمه اللّه ومن عمل بعده لما أراده من نشر العلم)

طبعة جديدة معدلة

قام بإعادة إخراجها وضبطها والتدقيق فيها



توزع بالمجان على روح المرحوم الحاج

عمر محمود خيتي

الطبعة الأولى ــ دمشق
١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حمدًا وشكرًا لك يا ربَّ البريّة، وصلاةً وسلامًا عليك يا صاحبَ الشمائل المحمديّة، وعلى آلِكَ الطيِّبين الطاهرين، وأصحابِك أهلِ الصدق واليقين.

وبعد؛ فقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿لقد كانَ لكم في رسولِ الله أسوةٌ حسنةٌ لِمَنْ كانَ يَرجو اللهَ واليومَ الآخِرَ وذَكَرَ اللهَ كثيرًا﴾ (الأحزاب، ٢١).

لقد مررت بهذه الآية الفذة حين قراءتي القرآن فوجدتها ترفع من شأن المقتدين والمتأسين بمحمد رسول الله ﷺ، وتبين أنهم يرجون رضاء الله وثوابه، كما أنهم يأملون نعيم اليوم الآخر ويخشون عقابه، وأنهم يكثرون من ذكر الله تعالى في كل حال من أحوالهم؛ في الخوف والرجاء، وكذا في الشدة والرخاء.

ولذا أحببت أن أجعلها موضوع خطبتي يوم الجمعة لتكون عظة لنفسي ولإخواني المستمعين، لاعتقادي أن الأمة المحمدية لا تكون متبعة

دينها حقًا، إلا إذا اتخذت نبيها ومنقذها الأعظم أسوتها وقدوتها، وخصوصًا في هذه الأيام التي عظم خطرها وعم بلاؤها، من كثرة فتنها وتعدد ذنوب ومعاصي أهلها. كما أجزم بلا تردد أن الأمة الإسلامية في جميع أنحاء المعمورة لا ينجيها من خطرها ولا ينقذها من ويلها ولا يعيد لها عزتها وكرامتها، إلا إذا رجعت إلى ربها وتمسكت بكتابها وجعلت نبيها محمدًا ﷺ أسوتها وقدوتها، جعلته أسوتها بكل ما في لفظة الأسوة من معنى، أسوة في كل شيء لا في الصلاة والدعاء فقط بل أسوة في جميع نواحي الحياة، ولاسيما والرسول ﷺ ليس قدوة المسلمين فحسب، بل هو قدوة وقائد لأهل الأرض جميعًا. قال تعالى: ﴿قُلْ يا أيها الناسُ إني رسولُ الله إليكم جميعًا﴾ (الأعراف، ١٥٨)، وقال: ﴿وما أرسلناكَ إلا كافَّةً للناسِ بشيرًا ونذيرًا﴾ (سبأ، ٢٨)، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كنتم تُحِبُّونَ اللهَ فاتبعوني يُحبِبْكم اللهُ ويغفِرْ لكم ذنوبَكم واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ (آل عمران، ٣١).

فلهذا كله ألهمت أن أذكر وسائل الاقتداء ومرغباته؛ وهي شمائل المصطفى ﷺ وأخلاقه التي يعبر عنها علماء الحديث بكلمة (كان) فيقولون مثلاً: (كان ﷺ لا يتطير ولكن يتفاءل)، وهكذا... ومن المعلوم أن هذه الشمائل يحبها قلب كل مؤمن، ويتعشقها فؤاد كل موحد.

فانتقيت جملة من هذه الشمائل التي تحتاجها الأمة في واقعها، وتفتقر إليها في حاضرها، وجعلت أذكر الشميلة وأفسرها إن احتاجت بما يعطي معناها، وبما يقربها من أفهام المستمعين، ويوصل الذكرى لقلوب المؤمنين.

ولقد كان ذلك ولله الحمد، فقد طلب الكثير طبعها ونشرها، فأجبتهم لذلك، شريطة أن توزع مجانًا في محبة رسول الله ﷺ، وشريطة أن يكون ثمنها العمل بها والتخلق بفضائلها. (وهكذا الشرط لكل من أراد إعادة طبعها من المحبين). وسميتها **الأحكام المرضية من الشمائل المحمدية**.

ملاحظة مهمة: لقد انتقينا أحاديث هذه الشمائل من كتاب **الجامع الصغير** ومن غيره من كتب الحديث المعتمدة. ونريد أن نبين هنا للقارئ الكريم أننا عزونا بعض هذه الأحاديث إلى مخرِّجيها ولم نعزُ أكثرها؛ وذلك طلبًا للاختصار وليكون حجم الرسالة لطيفًا، ولأننا أيضًا نظرنا إلى الأحكام التي يعطش إليها القراء، والتي فيها التأسي والاقتداء، ولأننا وضعناها لإخواننا العوام، لا لإخواننا السادة العلماء. على أنه من أشكل عليه شيء من الأحاديث أو أحب أن يطلع على مخرِّجيها فعليه

بالجامع الصغير فإن أكثر هذه الشمائل منه، وكذا من شراح الجامع الصغير كالمناوي والعلقمي والعزيزي والحفني، وكذلك **كتاب الشمائل** للإمام الترمذي وشراحها القاري والمناوي، وكذا أبواب الشمائل في الكتب الستة المشهورة، وكذلك كتاب **التاج الجامع للأصول**، و**الأنوار المحمدية** للشيخ يوسف النبهاني تغمد الله الجميع برحمته آمين، والحمد لله أولاً وآخرًا.

هذا، وإني أسأله تعالى أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه الكريم، ونورًا في صحائف سيد المرسلين، ساطعًا إلى أرواح أساتذتنا وشيوخنا وخصوصًا سيدي ومرشدي الشيخ أبا الخير الميداني تغمده الله برحمته وأسكنه ووالدينا وجميع المسلمين فسيح جنته آمين، والحمد لله رب العالمين.

خادم العلم الشريف وطالبه: محمد لطفي الفيومي

بعض ما تيسر من الشمائل الشريفة

١. كان ﷺ إذا عمل عملاً أثْبَتَهُ، وكان عمله دِيمَةً، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه.

ديمة أي دائمًا في سكون، والحكمة في هذا أن في المداومة على الأعمال أسرارًا تعود ثمراتها على المؤمن، منها ألفة النفس للعبادة، فإذا ألفت النفس العبادة اتصلت بخالقها عز وجل، ومنها القرب من درجة الاستقامة التي أمر بها النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿فاستقِمْ كما أُمِرْتَ﴾، ومنها الإشعار بالثبات والقوة في الله سبحانه، ولذا كان ﷺ أقوى الخلْقِ وأثبتَهم.

٢. كان ﷺ أخفَّ الناس صلاةً في تمام، وكان أخفَّ الناس صلاةً على الناس، وأطولَ الناس صلاةً لنفسه.

خفة الصلاة مع تمامها وعدم نقصها دليل على فقه المصلي، وعلى تغلبه على شيطانه، وتخفيف الصلاة على الناس دليل الرحمة؛ فإن فيهم

الضعيف والكبير وذا الحاجة، وتطويل الصلاة لنفسه دليل الإخلاص وحب المواصلة والمناجاة.

٣. كان ﷺ إذا ركع سوَّى ظهره حتى لو صُبَّ عليه الماءُ لاستقر، وإذا ركع فرَّجَ أصابعه، وإذا سجد ضمَّ أصابعه.

تسوية ظهر المصلي في الركوع، وتفريج أصابعه فيه، وضمها في السجود من سنن الصلاة. والحكمة في هذه الهيئة أنها تمكن الأعضاء من أداء العبادة بهيئة الهمة والقوة دون هيئة التراخي والكسل.

٤. كان ﷺ إذا انصرفَ من صلاته استغفَرَ ثلاثًا ثم قال: اللهم أنتَ السلامُ، ومنك السلامُ، تباركت يا ذا الجلالِ والإكرامِ.

الاستغفار عقب الصلاة وهو طلب المغفرة والستر، إما لما عساه أن يقع في الصلاة من التقصير والغفلة وعدم الحضور، ويكون الرسول ﷺ فِعلهُ تشريعًا للأمة، وإما لطلب الرجوع ومواصلة الذكر والعبادة في الصلاة وغيرها.

٥. كان ﷺ إذا سَمِعَ المؤذنَ قال مثلَ ما يقول، حتى إذا بلغ حي على الصلاة حي على الفلاح قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكان يقول عند حي على الفلاح: اللهم اجعلْنا مفلحين.

لما كانت إجابة المؤذن بالقول وبالفعل تحتاج إلى قوة على طاعة وتحول عن معصية بقول المجيب عند قوله حي على الصلاة: لا حول ولا قوة إلا بالله.

٦. كان ﷺ إذا أتى بابَ قومٍ لم يستقبلِ البابَ من تِلقاءِ وجهِهِ ولكنْ من رُكنِهِ الأيمنِ أو الأيسرِ ويقول: السلامُ عليكم، السلامُ عليكم.

مخافةَ أن يقع بصره على ما لا يجوز النظر إليه، فعلى المؤمن أن يلاحظ هذا، وكذلك فإن على المرأة إذا فتحت الباب أن تختبئ وراءه، ولا تستقبله كما يفعل بعضهن.

٧. كان ﷺ إذا أتاه الأمرُ يَسُرُّه قال: الحمد لله الذي بنعمته تَتمُّ الصالحاتُ، وإذا أتاه الأمرُ يكرهُه قال: الحمدُ لله على كل حال.

هذا منه ﷺ حمد وشكر على النعم، وحمد وتسليم عند النقم، وتحسين للظن بأنه تعالى لا يختار لعبده إلا ما فيه الخير، فعلى المؤمنين أن يقتدوا في سرائهم وضرائهم بنبيهم حتى يكونوا حقًا من الصادقين.

٨. كان ﷺ إذا أُتِيَ بطعام أكل مما يليه، وإذا أتي بالتمر جالت يدُه.

لأن الطعام نوع واحد فلا معنى لتنقل الأيدي، أما الفواكه فهي متنوعة فقد يكون الذي أمامه لا يصلح له، ولهذا كان جائزًا.

٩. كان ﷺ إذا دخل على مريض يَعُوْدُهُ قال: لا بأسَ طهورٌ إن شاء الله، ويقول: أذهبَ البأسَ ربُّ الناس اشفِ وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادرُ سقمًا.

أي لا بأس ولا شدة عليك، طهور أي مرضك مطهر لك ذنوبك.

١٠. كان ﷺ إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نفسُ أبي القاسم بيده.

لأن النبي ﷺ كان دائمًا مستغرقًا بحب الله مستحضرًا لعظمته فكأن نفسه في قبضة الله.

١١ . كان ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضعَ يدَه اليمنى تحت خده ثم يقول: باسْمِكَ اللهمَّ أحيا وباسمك أموتُ، ويقول: اللهم قِنِي عذابَك يوم تبعث عبادَك، وكان يقرأ: ﴿قُلْ يا أيُّها الكافرونَ﴾ حتى يختمها، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتَنا وإليه النشور. وفي بعض الروايات يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها فيما تحفظ به عبادك الصالحين.

١٢ . كان ﷺ إذا أراد أمرًا قال: اللهم خِرْ لي واختَرْ لي.

أي إذا أراد فعل شيء استخار الله تعالى وقال... الخ أي اختر لي أصلح الأمرين واجعل لي الخيرة فيه.

١٣ . كان ﷺ إذا ادَّهنَ صبَّ في راحته اليسرى فيبدأُ بحاجبَيه ثم عينَيه ثم رأسِه.

١٤ . كان ﷺ إذا أراد سفرًا قال: اللهم بك أَصُولُ، وبكَ أَحُولُ، وبكَ أَسيرُ.

أصول: أي أسطو وأحمل على العدو. أحول: أي أتحول عن المعصية.

١٥. كان ﷺ إذا غزا قال: اللهم أنت عَضُدي، وأنت نصيري، بك أحولُ، وبك أَصولُ، وبك أُقاتِلُ.

عضدي: أي معتمدي أتقوى بك كما يتقوى الشخص بعضده. نصيري: أي كثير النصر لي على أعدائي، وبك أقاتل العدو.

١٦. كان ﷺ إذا أصابه غمٌّ أو كَرْبٌ يقول: حَسْبيَ الربُّ من العباد، حَسْبيَ الخالقُ من المخلوقين، حسبي الرازقُ من المرزوقين، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلتُ وهو رب العرش العظيم.

حسبي الرب: أي كافيني الرب من شر العباد.

١٧. كان ﷺ إذا أصبحَ وإذا أمسى قال: أصبحْنا على فطرة الإسلام، وكلمةِ الإخلاص، ودينِ نبينا محمدٍ، وملةِ أبينا إبراهيمَ حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين.

كلمة الإخلاص: أي كلمة الشهادة.

١٨. كان ﷺ إذا اطَّلَعَ على أحد من أهل بيته كَذَبَ كَذبةً لم يزلْ مُعرِضًا عنه حتى يُحدِثَ توبةً، وكان أبغض الخلُق إليه الكذب.

١٩. كان ﷺ إذا أفطر عند قوم قال: أفْطَرَ عندكم الصائمون، وأكل طعامَكم الأبرارُ، وتنزَّلت عليكم الملائكةُ، أو صلَّت عليكم الملائكة.

٢٠. كان ﷺ إذا أكَلَ أو شَرِبَ قال: بِاسْمِ الله، فإذا فَرَغَ قال: الحمدُ لله الذي أطعمَنا وسقانا وجعلَنا مسلمينَ. وكان إذا رُفِعَتْ مائدته قال: الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، الحمد لله الذي كفانا وآوانا.

٢١. كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافيَ له ولا مُؤوِيَ له.

٢٢. كان ﷺ إذا هَمَّه الأمرُ رفعَ رأسَهُ إلى السماء وقال: سبحانَ اللهِ العظيمِ، وإذا اجتهدَ في الدعاء قال: يا حيُّ يا قَيُّومُ.

٢٣. كان ﷺ إذا بعث أحدًا مع أصحابه في بعض أمره قال: بشِّروا ولا تُنَفِّروا، ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا.

٢٤. كان ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيءٌ لم يقل: ما بالُ فلانٍ يقول؟ ولكنْ يقول: ما بالُ أقوام يقولون كذا وكذا؟

هذا من حسن توجيه الرسول ﷺ ينكر على المخالف بصورة غير مباشرة، ويرده إلى الحق والصواب، دون أن يخدش شعوره أمام الناس، فإذا به سرعان ما يرجع إلى الصراط المستقيم من تلقاء نفسه، وكم زلَّ أقوام حتى من المؤدبين الذين أخطؤوا هدي الرسول ﷺ في توجيهه وتعليمه. اللهم اهدنا بهديه، وخلِّقْنا بأخلاقه.

٢٥. كان ﷺ إذا تغدَّى لم يتعشَّ، وإذا تعشَّى لم يتغدَّ، وكان يبيتُ الليالِيَ المتتابعةَ طاويًا وأهلُه لا يجدون عَشاءً، وكان أكثر خبزهم الشعير.

كان ﷺ يفعل ذلك تنزُّهًا عن الدنيا، وتقويًا على العبادة، واجتنابًا للشبع، وإيثارًا وتقديمًا للمحتاجين على نفسه. وفي حديث البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شَبِعَ النبيُّ ﷺ ثلاثةَ أيامٍ تباعًا، ولو شاء لشبع لكنه يؤثر على نفسه. وكم في هذه الشمائل من فضائل؛

توفير للصحة، وتوفير للأوقات، وتوفير للأموال، وغير ذلك مما يجعله الموفقون مبذولاً في سبيل الحق وفي طاعة الله عز وجل.

٢٦. كان ﷺ إذا تكلَّمَ بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تُفْهَمَ عنه، وإذا أتى على قوم فسلَّمَ عليهم سلَّمَ عليهم ثلاثًا.

٢٧. كان ﷺ طويلَ الصمتِ قليلَ الضحكِ، وكان إذا جرى به الضحكُ وضَعَ يَده على فيه.

جرى به: أي غلبه الضحك، ولكن قلما يقع ذلك.

٢٨. كان ﷺ إذا جلس مجلسًا فأراد أن يقوم استغفر عشرًا إلى خمسَ عشرةَ، وكان لا يقوم من مجلس إلا قال: سبحانك اللهم ربي وبحمدِك لا إله إلا أنت أستغفرُكَ وأتوبُ إليك.

وهذا يسمى كفارة المجلس.

٢٩. كان ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلّى، وكان إذا حَزَبَهُ أمر قال: لا إله إلا الله الحليمُ الكريمُ، سبحانَ اللهِ ربِّ العرشِ العظيمِ، الحمدُ لله رب العالمين.

حَزَبَهُ أمر: أي نزل به همٌّ أو أصابه غمٌّ.

٣٠. كان ﷺ إذا حُمَّ دعا بِقِرْبةٍ من ماء فأفرَغَها على قرنه فاغتسلَ.

هذا من الطب النبوي الذي يطبق اليوم في أرقى الأمم، وقد جُرِّب حديثًا في البلاد الحارة أن من ضربته الشمس يوضع فورًا في الثلج فيشفى، كما وقع لبعض الحجاج في الحجاز. ولذا ورد في حديث البخاري ومسلم وغيرهما من قوله: الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء، وفي رواية: الحمى كير من جهنم فنحوها عنكم بالماء البارد. وهذا لا يمنع من استشارة الأطباء الحاذقين وخصوصًا في البلاد الباردة أو المعتدلة.

٣١. كان ﷺ إذا خاف أن يُصيبَ شيئًا بعينه قال: اللهم بارِكْ فيه ولا تَضُرَّه.

أي كان إذا أعجبه شيء، وهذا تشريع منه لأمته، وإلا فعينه ﷺ ونظره هو الرحمة وفيه السعادة، وكيف لا وذِكْرُ اسمه والصلاةُ عليه تمنع من إصابة العين كذكر اسم الله تعالى عند النظرة. هذا، وإن العين وتأثيرها حق بإذن الله، ولا ينكر ذلك إلا جاهل؛ ففي الحديث الصحيح

القريب من التواتر: العين حق... الخ، وفي رواية: تُدخل الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ. بل إن بعض العلماء أخذ ذلك من إشارة قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم، ٥١).

٣٢. كان ﷺ إذا خاف قومًا قال: اللهم إنا نجعلُك في نحورِهم، ونعوذُ بك من شرورِهم.

والمراد: نسألك أن تكفينا أمورهم وتحول بيننا وبينهم.

٣٣. كان ﷺ إذا دخل الخلاءَ قال: اللهم إني أعوذُ بك من الخبث والخبائث، وإذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذي أذاقني لذتَه، وأبقى فيَّ قوتَه، وأذهبَ عني أذاه وعافاني، ويقول: غُفرانَك.

أي إذا دخل المرحاض لقضاء الحاجة قال... الخ، الخبث ذكور الشياطين والخبائث إناثهم، أما قوله إذا خرج... الخ ففيه الحمد على ثلاث نِعَم يغفل عنها كثير من الناس: أولها ذوق لذة الطعام؛ فبعض الناس فاقد هذه اللذة لمرض فيجد الماء أو الطعام مرًا، وثانيها بقاء قوة الطعام وغذائه في البدن؛ فبعض الأمراض تخرجه بجملته، ثالثها

ذهاب الثفل والأذى بالدفع لقضاء الحاجة؛ فبعض الناس يخرج منهم ذلك بالآلات أو المسهلات دومًا. فلينظر العاقل في هذه النعم الثلاث يجدها تساوي الدنيا وما فيها.

٣٤. كان ﷺ إذا خرج من بيته قال: باسم الله، توكلتُ على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أعوذُ بِكَ أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أظْلِمَ أو أُظلَمَ، أو أَجهَلَ أو يُجهَلَ عليَّ، أو أبغْيَ أو يُبغى عليَّ.

لقد جاء في بعض روايات الحديث أن الملك يجيب من قال: باسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، بقوله: كُفيتَ، وهُديتَ، ووُقيتَ، (أي ثلاث تقابل ثلاثًا) فيتنحَّى الشيطانُ ويتلقاه آخر فيقول: كيف لكَ برجُل قد كُفيَ وهُديَ ووُقيَ؟

٣٥. كان ﷺ إذا دخل الجبَّانةَ يقول: السلامُ عليكم أيتها الأرواحُ الفانيةُ، والأبدانُ الباليةُ، والعظامُ النخِرةُ، التي خرجَتْ من الدنيا وهي بالله مؤمنةٌ، اللهمَّ أَدخِلْ عليهم روحًا منك، وسلامًا منا.

أيتها الأرواح الفانية: أي الأرواح التي أجسادها فانية؛ لأن الروح تصعد إلى السماء. وقد روى ابن أبي شيبة عن الحسن قال: من دَخَلَ المقابرَ فقال: اللهم ربَّ الأجساد البالية والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة، أَدخِلْ عليها روحًا من عندك (أي رحمة وسلامًا مني، استغفَرَ له كلُّ مؤمن مات مذ خَلَقَ اللهُ آدمَ.

٣٦. كان ﷺ إذا دخل المسجدَ يقول: باسم الله، والسلام على رسول الله، اللهم اغفِرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ رحمتِك، وإذا خرج قال: باسم الله، والسلامُ على رسول الله، اللهم اغفِرْ لي ذنوبي، وافتح لي أبوابَ فضلِك.

٣٧. كان ﷺ إذا دعا بَدَأَ بنفسه، وكان إذا دعا فرفعَ يديه مسحَ وجهَه بيديه، وكان إذا دعا لرجل أصابته الدعوةُ وَوَلَدَهُ وولَدَ ولَدِه.

لأن ذلك أبلغ في الافتقار وأبعد عن التكبر، وذلك سنة الأنبياء، قال نوح عليه السلام: ﴿ربِّ اغفرْ لي ولِوالدَيَّ﴾ (نوح، ٢٨)، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿واجنُبني وبَنيَّ أن نعبدَ الأصنامَ﴾ (إبراهيم، ٣٥).

٣٨. كان ﷺ إذا رأى الهلالَ قال: اللهُ أكبر، الله أكبر، الحمدُ لله، لا حول ولا قوة إلا بالله، هلال خيرٍ ورشد، اللهم أَهِلَّهُ علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام والسكينة والعافية والرزق الحسن، ربي وربك الله، اللهم إني أسألُكَ من خير هذا الشهرِ وأعوذُ بك من شره.

لأن أهل الجاهلية فيهم من عبدَ القمر، فكأن المؤمن يقول له: أنت مسخر لنا لتضيء لأهل الأرض ولنعلم عدد السنين والحساب، ولا نعبد إلا الذي سخرك لنا.

٣٩. كان ﷺ إذا رفَعَ بصرَهُ إلى السماء قال: يا مُصرِّفَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على طاعتِك.

٤٠. كان ﷺ إذا رَمَدَتْ عينُ امرأةٍ من نسائه لم يأتِها حتى تَبْرَأ عينُها.

أي لم يجامعها؛ لأن الجماع كما أجمع عليه الأطباء حركة كلية للبدن وأخلاطه، وهذا مما يزعج الأعضاء، والعين في حال رمدها في غاية الضعف، صلى الله عليك، يا طبيب الأطباء ويا سيد الرحماء.

٤١ . كان ﷺ إذا شرب الماءَ تَنَفَّسَ ثلاثًا، ويقول: هو أَهنأُ وأَمرأُ وأَبرأُ، وكان يسمي عند كل نفس ويقول في آخرهن: الحمدُ لله الذي سقانا عَذْبًا فُراتًا برحمتِه، ولم يجعلْهُ ملحًا أُجَاجًا بذنوبنا.

أجاجًا أي مرًا.

٤٢ . كان ﷺ إذا عَصفتِ الريحُ استقبلَها بوجهِه وجَثا على ركبتَيْه وَمَدَّ يدَيه وقال: اللهم إني أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرسلتْ به، وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها وشر ما أُرسلت به، اللهم اجْعلْها رحمةً ولا تجعلْها عذابًا، اللهم اجعلْها رياحًا ولا تجعلْها ريحًا.

وذلك، لأن الريح أهلكت قوم سيدنا هود وهم عاد، أما الرياح فترُسَلُ للمطر والرحمة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرسِلُ الرَّياحَ بُشْرًا بينَ يَدَيْ رَحمتِهِ﴾ (الأعراف، ٥٧).

٤٣ . كان ﷺ إذا عَطَسَ حَمِدَ اللهَ، فيُقال له: يَرْحَمُكَ اللهُ، فيقول: يَهديكمُ اللهُ ويُصْلِحُ بالَكم. وكان إذا عَطَسَ وضَعَ يدَه أو ثوبَه على فِيهِ وخفَضَ بها صوتَه، وكان يكرهُ العطسةَ الشديدةَ في المسجد.

وضع يده في فمه عند العطاس من الأدب، ولاسيما بين الناس فقد يصيبهم منه شيء، وكذا من الأدب خفض الصوت بها؛ لأن العطسة الشديدة مزعجة، ولاسيما في المسجد فهي أشد كراهية، ولذا جاء في بعض الروايات أنها من الشيطان.

٤٤. كان ﷺ إذا غَضِبَ وهو قائمٌ جَلَسَ، وإذا غَضِبَ وهو جالسٌ اضْطَجَعَ فَيَذهَبُ غضبُه.

القعود في الأرض بدل القيام في حالة الغضب، وكذا الاضطجاع هو أبعد عن المسارعة إلى الانتقام وأسكن للحدة، وإذا لم يسكن الغضب يسنّ الوضوء، والحكمة في هذا أن الغضب من الشيطان والشيطان خلق من نار، والإنسان خلق من الأرض، فكلما قرب الغضبان منها (وهي أمه) كان أطفأ لغضبه.

٤٥. كان ﷺ إذا غَضِبَتْ عائشةُ عَرَكَ بأنفها وقال: يا عُوَيشُ قولي: اللهم ربَّ محمدٍ اغفِرْ لي ذنبي، وأَذْهِبْ غيظَ قلبي، وأَجِرْني من مُضِلاّتِ الفِتن.

عرك بأنفها ملاطفة بها ليذهب غضبها، لا كما يفعله بعض الجهلة من لطم وجهها وأنفها حين الغضب، وكم لعب الشيطان وأخذ حظه في مثل هذه المواقف، ولا يرضى إلا بالطلاق وتبديد الأسرة. فليحذر ذلك كل عاقل وليتحلَّ بهذه الشميلة المحمدية. ثم زاد الرسول ﷺ باللطافة حيث صغَّر اسمها بقوله: يا عويش.

٤٦. كان ﷺ إذا فاتَه الأربعُ قبلَ الظهْرِ صَلاها بعد الركعتينِ بعد الظهر، وكان لا يَدَعُ أربعاً قبلَ الظهر، وركعتينِ قبل الغداة، وكان لا يَدَعُ ركعتَي الفجر في السفر ولا في الحضر، ولا في الصحة ولا في السقم.

من آكد السنن المؤكدة سنة الفجر، ويأتي بعدها في التأكيد الأربع قبل الظهر، لذا كان ﷺ يحافظ عليها سفرًا وحضرًا وصحة وسقمًا، وإذا صادف أن فاتته الأربع قبل الظهر صلاها بعد الظهر، وصلاة الغداة هي الفجر.

٤٧. كان ﷺ إذا فَرَغَ من دفْن الميت وقفَ عليه فقال: استغفِروا لأخيكم وَسَلُوا له التثبيتَ؛ فإنه الآن يُسأَلُ.

أي اطلبوا من الله تعالى أن يثبت لسانه وقلبه لجواب الملَكَينِ، وهذا من كمال رحمة الرسول ﷺ بأمته ليكونوا إخوة متعاونين في الله حتى بعد مماتهم.

٤٨. كان ﷺ إذا فَقَدَ الرجلَ من إخوانه ثلاثةَ أيام سألَ عنه، فإنْ كان غائبًا دعا له، وإن كان شاهدًا زارَه، وإن كان مريضًا عادَه.

هذا من حقوق المؤمنين يتفقد بعضهم بعضًا، ويعطف بعضهم على بعض، ولاسيما الإمام في رعيته، وكل مسؤول في من تحت يده.

٤٩. كان ﷺ إذا قام من الليل ليصلي افتَتَحَ صلاتَه بركعتينِ خفيفتينِ.

بتخفيف القراءة فيهما، مبادرةً لحل عقدة الشيطان، وقد ورد في الحديث الصحيح: يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقد... الخ. والرسول ﷺ وإن كان منزهًا عن عُقد الشيطان، لكنه فعله تشريعًا لأمته، هذه هي الحكمة من تخفيف الركعتين، وأيضًا لينشط بهما لما بعدهما من قيام الليل.

٥٠. كان ﷺ إذا كَرِهَ شيئًا رُئِيَ ذلك في وجهه.

أي رُئيَ أثر ذلك في وجهه، ولم يتكلم به لشدة حيائه، فلا يواجه أحـدًا بما يكره، وإنما يظهر ذلك في وجهه لـصفاء قلبـه الـشريف فـلا يحمـل حقدًا ولا يضمر شرًا لأحد، ولأن وجهه ﷺ يـشبه الـشمس والقمـر والمرآة الصافية، وهذا أدنى كسوف أو غيرة يظهر عليها.

٥١. كان ﷺ إذا وَدَّعَ رجلاً أَخَذَ بيدِه فلا يدَعُها حتـى يكـونَ الرجـلُ هو الذي يدعُ يـدَه، ويقـول: أسـتودعُ اللهَ دينَـك وأمانتَـك وخـواتيمَ عملِك.

أي اجعل هذه الأمور الغالية في وديعة الله وحفظه، وهـو سـبحانه إذا استودع شيئًا لا يضيع أبدًا.

٥٢. كان ﷺ إذا مَرِضَ أحَدٌ من أهل بيته نَفَثَ عليه بالمعوذات، وكان إذا اشتكى نفث على نفسه بالْمُعَوِّذات ومَسَحَ عنه بيده.

أي نفخ نفخًا لطيفًا بالمعوذات، وهي ثلاثـة: ١. قـل هـو الله أحـد... الخ؛ ٢. قل أعوذ برب الفلق... الخ؛ ٣. قـل أعـوذ بـرب النـاس... الخ، لأنها جامعات للاستعاذة من كل مكروه (بشرط النية الصادقة). وفائدة النفث التـبرك بتلـك الرطوبـة أو الهـواء الـذي مـاسَّ القـرآنَ

والذكر. وفي هذا الحديث ندب الرقية بالقرآن، وهو من الطب النبوي، والنبي ﷺ تارة يرقي بالطب الروحاني كما هنا، وتارة بالجسماني كالعسل والحبة السوداء، وتارة بهما.

٥٣. كان ﷺ إذا نظر إلى البيت قال: اللهم زِدْ بيتَك هذا تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا وبرًا ومهابة.

لأن الكعبة هي بيت الله، ولا أعظم منه، وما من نبي ولا ملك إلا طاف به وتبرك ودعا، فهو كامل ويقبل الكمال وزيادة التعظيم والمهابة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٥٤. كان ﷺ إذا نَظَرَ وجهَه في المرآةِ قالَ: الحمدُ لله الذي سَوَّى خَلْقيَ فَعَدَلَهُ، وأَكْرَمَ صورةَ وجهي فحَسَّنَها، وجَعَلَني منَ المسلمين.

هذا من أداء واجب الشكر على النعمة (وأي نعمة هي أعظم من أن يكون وجه الإنسان مغايرًا لوجه الحيوان)، وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، يكثر النظر في المرآة فقيل له في ذلك، فقال: أنظر فما كان في وجهي زين فهو في وجه غير شين (أي عيب) أحمد الله عليه.

ويُستحب للناظر أيضًا أن يقول: اللهم كما حسَّنتَ خَلْقي فحسِّنْ خُلُقي.

٥٥. كان ﷺ إذا أرادَ أن يُزوِّجَ امرأةً من نسائِه يأتيْها من وراءِ الحجابِ فيقولُ لها: يا بُنَيَّةُ إنَّ فلانًا خَطَبَكِ فإنْ كَرِهْتيهِ فقولي لا، فإنه لا يَسْتَحيْ أحدٌ أن يقولَ لا، وإنْ أحْبَبْتِ فإنَّ سُكوتَكِ إقرارٌ.

أي من أقاربه، وزاد في رواية، فإنْ حرَّكتِ الخِدرَ (أي الحجاب) لم يزوجها، وإن لم تحركه زوجها، فيطلب من كل أب أو ولي أن يفعل هذا، ولا يزوج إلا عن رضا واختبار، فإن ذلك أطيب للنفس وأضمن للعاقبة.

٥٦. كان ﷺ إذا أراد الحاجة لم يرفعْ ثوبَه حتى يدنوَ من الأرض.

أي من بول أو غائط، لم يرفع ثوبه لئلا تظهر عورته، وهذا من أدب قضاء الحاجة، ولأن إظهار العورة حرام، وقد كان ﷺ أحفظ الناس في هذا الأمر حتى مع نسائه، على أن الشرع لم يحرم ذلك بين الزوجين، وإن كان الأولى عدم النظر؛ ولذا تقول عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه ولا رأى مني.

٥٧. كان ﷺ إذا أراد سفرًا أقرعَ بين نسائه فأيتُهن خرجَ سهمُها خرجَ بها معه، وكان يَقْسِمُ بين نسائه فيعدِلُ ويقول: اللهم هذا قَسْمي فيما أملكُ، فلا تَلُمْني فيما تملك ولا أملك.

تطييبًا لنفوسهن، وعملاً بالعدل، وحذرًا من الترجيح بلا مرجح، فليسمع هذا من يعدد النساء ولا يعدل، فيكون في بلده أو بيته وتراه يجور ويميل إلى التي يحبها أو الجديدة، ويظلم الأخرى، فلا هي ذات زوج ولا هي مطلقة، قال تعالى: ﴿فَلا تَمِيلُوا كُلّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء، ١٢٩)، أما إذا عدل بالبيتوتة والنفقة ولكن قلبه يميل بالمحبة إلى واحدة دون أخرى فهذا مما لا يؤاخذ به الإنسان، لأنه لا يملكه، ولذا يقول ﷺ: اللهم هذا قسمي فيما أملك... الخ.

٥٨. كان ﷺ إذا أفطر قال: اللهم لك صُمتُ، وعلى رزقك أفطرتُ، ذهبَ الظمأُ وابتلّتِ العروقُ، وثبتَ الأجرُ إن شاء اللهُ تعالى، الحمدُ لله الذي أعانني فصمتُ، ورزقني فأفطرتُ، فتقبَّلْ مني إنك أنت السميعُ العليمُ.

فيستحب لكل صائم أن يقول هذا الدعاء عند إفطاره، لأن لكل صائم عند فطره دعوة مستجابة.

٥٩. كان ﷺ إذا أصابه رَمَدٌ أو أحدًا من أصحابه دعا بهؤلاء الكلمات: اللهم مَتعْني ببصري واجعله الوارثَ مني، وأرِني في العدو ثأري وانصرني على من ظلمني.

هذا من الطب الروحاني، فيجب اعتقاده، ولا يمنع من استعمال العلاج، فقد ورد أن عليًا كرم الله وجهه كان أرمد في إحدى عينيه، فدخل مع النبي ﷺ على بعض الصحابة فوضع لهما طبقًا من الرطب، والرطب من أحمى الفواكه، فجعل علي يأكل، فقال له ﷺ: يا عليُّ أتأكل من هذا وأنت أرمد؟ أي رمدان، فأراد علي أن يضحك الرسول فقال: يا رسول الله آكل من جانب العين السليمة، فضحك النبي ﷺ. ثم صادف أن دخلا ضيافة أخرى فوضعوا لهما السلق (والسلق بارد) فقال النبي ﷺ: يا عليُّ من هذا فَأَصِبْ.

٦٠. كان ﷺ إذا توضأ حَرَّكَ خاتمَه، وخلَّلَ لحيَتَه، وأدار الماءَ على مرفقَيه، وَدَلَكَ أصابع رجليه بخنصره، وإذا توضأ صلى ركعتين ثم خرج إلى الصلاة.

تحريك الخاتم الضيق الذي يمنع وصول الماء فرض لا يصح الوضوء دونه، وإن كان الخاتم واسعًا يجري الماء تحته استحب تحريكه، وتخليل اللحية الكثيرة الشعر والتي لا ترى بشرتها سنة، ويكفي في الوجوب غسل ظاهرها. أما الخفيفة التي ترى بشرتها فلابد من إيصال الماء إلى البشرة، وإبلاغ الماء إلى المرفقين، ودلك أصابع الرجلين، كل ذلك من الفرائض إن لم يصل الماء، وإن وصل كان سنة، ومثل الوضوء في هذه الأحكام الغسل، ويستحب لمن توضأ أو اغتسل أن يصلي ركعتين.

٦١. كان ﷺ إذا خلا بنسائه أَلْينَ الناسِ، وأكرمَ الناسِ، ضحّاكًا بسّامًا.

من الأخلاق الكريمة التي توجب الألفة والمحبة بين الأهل أن يكون الرجل بين نسائه وأهله كما كان النبي ﷺ لينًا كريمًا بسامًا، فإن النساء يملكهن الكرم واللين والبشْر. ومن تلطفه ﷺ أنه كان إذا دخل

عليهم بالليل سلَّم تسليمًا لا يوقظ النائم ويسمع اليقظان، فعلى المؤمن أن يتخلق بهذه الأخلاق، وألا يكون بخيلاً جافًا غليظًا على أهله، فإن ذلك مما يسبب النفور، أما إذا رأى شيئًا يخالف الشرع فعليه أن يغضب لله وأن يوقفهم عند حدودهم، وإلا كان مسؤولاً عن ذلك: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

٦٢. كان ﷺ إذا دخل العَشْرُ (الأخير من رمضان) شدَّ مِئزرَه، وأحيا ليلَه، وأيقظَ أهلَه.

شد المئزر كناية عن الاجتهاد في العبادة، وتخصيص العشر الأخير لأن فيه ليلة القدر على أكثر الأقوال.

٦٣. كان ﷺ إذا ذبَحَ الشاةَ يقول: أرسِلوا بها إلى أصدقاءِ خديجةَ.

أرسلوا بها أي ببعضها، وهذا حُسْن عهد من النبي ﷺ لزوجته خديجة الكبرى رضي الله عنها التي لها اليد الطولى في خدمة الإسلام وتأسيسه، والرعاية العظمى للنبي ﷺ في بدء حياته النبوية، فالنبي ﷺ لا ينسى لها فضلها فدومًا يذكرها بخير ويبرُّ أصدقاءها حتى بعد مماتها.

٦٤. كان ﷺ إذا سَلَّمَ (أي من الصلاة) لم يقعد إلا بمقدار ما يقول: اللهم أنت السلامُ ومنك السلامُ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرام.

٦٥. كان ﷺ إذا شَهِد الجنازةَ أكثرَ الصُّماتَ، وأكثرَ حديثَ نفسِه.

الصمات السكوت، أي أكثر السكوت وحديث النفس في أهوال الموت وما بعده، وهذا يدل على شدة تيقظه وعظيم اعتباره.

٦٦. كان ﷺ إذا قَدِمَ عليه الوفدُ لَبسَ أحسنَ ثيابه، وأمرَ عِلْيةَ أصحابه بذلك.

لأن ذلك أرجى لامتثال أمره، والعمل بإرشاده، وربما كان ذلك أهيب في وجوه الأعداء وأدعى لكبتهم، وفي هذا إعلاء لكلمة الله ونصرة دينه، وعلية أصحابه عظماؤهم والذين عندهم الثياب الحسنة.

٦٧. كان ﷺ إذا لقيه أحدٌ من أصحابه فقام معه قام معه فلم ينصرفْ حتى يكونَ الرجلُ هو الذي ينصرفُ عنه، وإذا لَقِيَهُ أحدٌ من أصحابه فتناول يده ناولَه إياها فلم يَنزِع يدَه منه حتى يكونَ الرجلُ هو الذي ينزع يده منه، وإذا لَقيَ أحدًا من أصحابه فتناول أُذُنَه ناوله إياها ثم لم ينزِعها حتى يكونَ الرجلُ هو الذي ينزعها منه.

قام معه أي وقف معه، وقوله: فتناول أذنه أي أراد أن يُسرَّ له حديثًا وقرَّبَ فمه من أذنه، فكان ﷺ لا ينحّي أذنه عن فمه حتى يفرغ الرجل. وهذا من محاسن الأخلاق، ومن التواضع وخفض الجناح للمؤمنين، كيف لا وهو القائل: وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسنٍ.

٦٨. كان ﷺ أحبُّ الشاةِ إليه مقدمُها.

لأنه أقرب إلى المرعى وأبعد عن النجاسة، وأخف على المعدة، وأسرع انهضامًا، وهذا من طبه ﷺ الذي لا يدركه إلا أفاضل الأطباء وحذّاقهم، فإنهم شرطوا في جودة الأغذية نفعها، وتأثيرها في القوى، وخفتها على المعدة، وسرعة هضمها.

٦٩. كان ﷺ أحبُّ الطعام إليه الثريدُ من الخبز والثريدُ من الحَيْس.

الثريد هو الفتُّ في المرق، وقد يكون معه لحم وقد لا يكون، والحيس هو التمر أو العجوة ينزع منه النوى ويعجن بالسمن ونحوه، ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد. ومزية الثريد على غيره أنه كثير النفع، سهل المساغ، وبلوغ الكفاية منه بسرعة اللذة والقوة.

٧٠. كان ﷺ أكثر ما يصوم الاثنين والخميس، فقيل له فقال: الأعمالُ تُعرَضُ كلَّ اثنين وخميس، فيغفر لكل مسلم إلا المتهاجرَين فيقول: أَخِّروهما، وكان لا يَدَعُ صوم أيام البيض في سفر ولا حضر.

٧١. كان ﷺ رحيمًا بالعيال، وكان رحيمًا لا يأتيه أحدٌ إلا وعدَه وأنجزَ له إن كان عنده.

أي عياله وعيال غيره، وقوله: لا يأتيه أحد، أي يسأله شيئًا.

٧٢. كان ﷺ أكثر دعائه: يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك، فقيل له فقال: إنه ليس آدميٌّ إلا وقلبُه بين إصبعين من أصابع الله فمن شاء أقامَ ومن شاء أزاغَ.

٧٣. كان ﷺ أكثرُ دعائه يومَ عَرَفةَ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ، بيده الخيرُ، وهو على كل شيء قدير.

٧٤. كان ﷺ أكثرُ دعوة يدعو بها ﴿ربَّنا آتِنا في الدنيا حَسَنةً وفي الآخِرةِ حَسَنةً وقِنا عذابَ النارِ﴾، وكان يذكر الله على كل أحيانه.

إنما كان يكثر من هذا الدعاء لأنه من الجوامع التي تجمع وتحوز جميع الخيرات الدنيوية والأخروية، وقنا عذاب النار أي بعفوك وغفرانك، وكان يذكر الله أي بقلبه وبلسانه، على كل أحيانه أي كل أوقاته وحالاته؛ قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا، متطهرًا ومحدثًا وجنبًا (فإن الجنابة لا تمنع الذكر، بل تمنع قراءة القرآن) حتى كان الذكر يجري مع أنفاسه.

٧٥. كان ﷺ له بُرْدٌ يَلبَسُهُ في العيدَينِ والجمعة.

أي رداء أخضر، وكان يتجمل به للوفود أيضًا. قال الإمام الغزالي رحمه الله: وهذا كان منه ﷺ عبادة، لأنه مأمور بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستمالة قلوبهم، ولو سقط عن أعينهم لم يرغبوا في اتباعه، فكان يجب عليه أن يُظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم، فإن أعين العوام تمتد إلى الظاهر دون السرائر. وأخذ من هذا الحديث بعض العلماء أنه يسن للإمام يوم الجمعة والعيدين أن يزيد في حسن الهيئة واللباس والزينة مستدلاً بحديث الطبراني عن عائشة رضي الله عنها: كان له ثوبان يلبسهما في الجمعة، فإذا انصرف طويناهما إلى مثله.

٧٦. كان ﷺ له خِرقةٌ يَتَنشَّف بها بعد الوضوء. وفي رواية منديل.

فلا يكره التنشيف، كما ذهب إليه جمع من الفقهاء أخذًا من هذا الحديث وغيره، وقال بعضهم: الأولى عدمه، لأن التنشيف كالتبرِّي من أثر العبادة، وبقاؤه محمود، لأن ماء الطهارة يوزن كما قال الزهري، إلا لنحو شدة برد فلا كراهة.

٧٧. كان ﷺ لا يأخذ بالقَرَف (التهمة) ولا يَقبَلُ قولَ أحدٍ على أحد.

وقوفًا منه ﷺ مع العدل، ولأن الحقائق لا تثبت بالتهم والأقوال، فلابد لها من طرقها المعتبرة.

٧٨. كان ﷺ لا يَتَطَيَّرُ ولكنْ يتفاءلُ، وكان يُحِب الاسمَ الحسَنَ.

أي لا يتشاءم بأمر كما تفعله الجاهلية؛ إذا أراد أحدهم سفرًا أو غيره نفر طائرًا فإن طار يمينًا استبشر ومضى، وإن طار شمالاً تشاءم وأعرض، وهذا من سخافتهم، فأهدره، وكان يتفاءل أي يتيمن بالكلام الحسن مثل: يا راشد، يا نجيح، وهكذا... فإذا أراد أمرًا أحكمه وتوكل على الله تحسينًا للظن بالله سبحانه.

٧٩. كان ﷺ لا يَدَعُ قيامَ الليل، وكان إذا مَرِضَ أو كَسِلَ صلى قاعدًا، وكان ينام أولَ الليلِ ويُحْيي آخِرَه، وكان يقومُ إذا سمعَ الصارِخَ.

أول الليل بعد صلاة العشاء لأن النوم فيه أنفع للبدن وأقوى للأعضاء فتعطى القوى حظها من الراحة، ويستيقظ آخره ليعطيها حظها من الرياضة والعبادة، وفي آخر الليل تحل الرحمات العظيمة، فيكون في ذلك غاية صلاح القلب والبدن والدين. والصارخ هو الديك لأنه يصيح غالبًا في النصف أو الثلث الأخير من الليل، فإذا سمعه يقوم فيحمد الله ويهلله ويكبره ويدعوه، ثم يستاك ويتوضأ ويقوم للصلاة بين يدي ربه مناجيًا له بكلامه، راجيًا وراغبًا وراهبًا. وخص هذا الوقت لأنه وقت هدوء الأصوات والسكون ونزول الرحمات والتجليات الإلهية.

٨٠. كان ﷺ لا يَرُدُّ الطِيبَ، وكان يَقْبَلُ الهَدِيةَ ويُثِيبُ عليها.

لأنه طيب الريح، ولا منَّةَ في قَبوله، وقبول الهدية للتحابِّ والتوادِّ، فقد ورد: تهادوا تحابوا، ويثيب عليها أي يجازي ليعلم الكرم ولتقوى أواصر الصلات والمعاونة بين الأمة. أما الصدقة فكان ﷺ لا يقبلها، لما فيها من معنى الذل والترحم، ولذا ورد: إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة.

٨١. كان ﷺ لا يُصافِحُ النساءَ في البَيْعةِ، ولكنْ يُبايعُ النساءَ بالكلام.

وهذا من عفة الرسول ﷺ ومن تشريعه لأمته، فيد الشرفاء الأعفّاء لا تمس ولا تصافح يد النساء الأجنبيات. وقد قال العلماء: يحرم مس الأجنبية ولو في غير عورتها لأن المسَّ أشد خطرًا من النظر، والقول إنه كان يصافح النساء في البيعة بحائل لم يصح؛ ففي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام، قالت: وما مسَّتْ يدُ رسول الله ﷺ يدَ امرأة إلا امرأةً يملكها. وقال ﷺ للمرأة التي كانت في صفوف النساء المبايعات والتي قالت له: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ أي في مبايعتنا كما تصافح الرجال، فقال ﷺ: إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة.

فعلى المسلمين ذوي الشرف والدين أن يفهموا هذا، وبخاصة عند الاجتماعات بين الأهل والأقارب والأحماء والأصحاب وزوجاتهم، فقد كثرت -بل وصارت عادةً- المصافحات، بل وأكثر منها من قبيح العادات المستوردة من الأجانب أعداء الأخلاق والشرف والدين. وليعودوا إلى أكرم الأخلاق وأعظمها وأعلاها؛ وهي الأخلاق الإسلامية والشمائل المحمدية كي يعود لهم عزهم ونصرهم وقيادتهم

لأهل الأرض أجمعين. اللهم نوِّرْ قلوبَنا ويقِّظْ عقولَنا وحسِّنْ أخلاقَنا، كي نجعل نبينا محمدًا ﷺ في كل شيء ولاسيما في الشرف أسوتنا، وأصحابه قدوتنا آمين يا رب العالمين.

٨٢. كان ﷺ لا يقعد في بيت مظلم حتى يُضاءَ له بالسِّراج، وكان يكره السراجَ عند الصبح.

هذه يقظة منه ﷺ شرعها لأمته، فقد يكون في البيت أو في المكان المظلم بعض الحشرات أو غيرها من المؤذيات التي تكون في البيوت، أو شيء يضره دعسة الإنسان، فإذا أضيء بالسراج قعد، لكنه كان يطفئه عند النوم؛ أولاً ليأمن شر النار، وثانيًا لأن النوم في الظلام هو أصح للأبدان والعيون، كما ثبت ذلك طبًا، فإذا قرب الصبح وهو وقت العبادة فلا حاجة إلى السراج بل ربما كان إسرافًا؛ فلذا كان يكرهه.

٨٣. كان ﷺ لا يُواجِهُ أحدًا في وجهه بشيء يَكْرَهُه.

لكثرة حيائه ﷺ ولأن مشافهته قد تؤدي إلى خطر عظيم، فإن من يكره أمر النبي ﷺ ويأبى امتثاله عنادًا أو رغبة عنه يكفر، أعاذنا الله.

وقد يكون فيها أيضًا مخافة نزول العذاب العامّ؛ ففي ترك المواجهة كل المصلحة والرحمة منه، ولكن كان لأجل أن ينفذ الأمر المشروع يعرض تعريضًا، فيقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا... الخ فيرجع المخالف ويتوب المذنب، فهو ﷺ حقًّا صاحب الأسلوب الحكيم، وهو صدقًا حامل القلب الرحيم.

٨٤. كان ﷺ يأمر نساءَه إذا أرادتْ إحداهن أن تنام أن تَحْمَدَ ثلاثًا وثلاثين، وتُسَبِّحَ ثلاثًا وثلاثين، وتُكَبِّرَ ثلاثًا وثلاثين.

هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى: ﴿والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثوابًا وخيرٌ أملاً﴾ (الكهف، ٤٦). وهذا التحميد والتسبيح والتكبير يفيد، كما ورد، أرباب الأعمال الشاقة وربات الأشغال البيتية المتعبة، ويكسبهم راحة، فلعل الرسول ﷺ أراد ذلك لنسائه؛ فقد ورد في بعض طرق الحديث ما حاصله أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها كانت كثيرة الأشغال في بيتها، فكانت فوق شؤونها البيتية المعلومة لكل بيت ذي زوج وأولاد، يزيد عليها الطحن والعجن والخبز، وكذا طحن العلف للخيل، وكان علي كرم الله وجهه فارسًا وكذا لوازم الضيفان، وكان

علي مضيافًا كريمًا، فكانت تتعاطى جميع هذه الأعمال بنفسها، وهكذا حتى دملت يداها، وأشفق عليها زوجها علي، فقال لها: اذهبي إلى أبيك (يعني النبي ﷺ) فإنه يأتيه الخدم، فاطلبي خادمًا، فذهبت فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها، فلما جاء النبي ﷺ ذكرت عائشة قضيتها للنبي ﷺ فقال: ما كنتُ لأعطيها وأدع فقراء المهاجرين يتضورون جوعًا، ثم لما صلى صلاة العشاء وتذكَّرَ قضيةَ بنته فاطمة رقَّ لها فذهب إليها، قالت فاطمة رضي الله عنها: فلما أن أخذنا مضجعنا دخل علينا رسولُ الله ﷺ فأردنا أن نقوم فقال: مكانكما، ودخل بيننا في الفراش ووضع إحدى رجليه على زوجي علي ورجله الثانية عليَّ، ثم قال: ألا أدُلُّكما على خيرٍ لكما من خادم؟ قلنا: بلى يا رسولَ الله، فقال: إذا أويتما إلى فراشكما فسبِّحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبِّرا ثلاثًا وثلاثين، فذلكما خيرٌ لكما من خادم. فقيل لعلي كرم الله وجهه: هل تركتَها منذ سمعتَها من النبي ﷺ؟ قال: لا، قيل: ولا يومَ صِفّين؟ قال: ولا يوم صفين. (وصفين مكان قرب الرقة بشاطئ الفرات كانت به الوقعة العظمى والحرب المشؤومة).

٨٥. كان ﷺ يأتي ضعفاءَ المسلمين ويزورُهم، ويعودُ مرضاهم، ويشهَدُ جنائزَهم.

وهذا من تواضعه لهم، ومن تلطفه وعطفه عليهم، وكان يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه ويسأله كيف حاله. فيطلب من كل مسلم أن يتخلق بهذه الأخلاق، وإن بلغ ما بلغ من القدر والرفعة، فإن النبي ﷺ أعظم الخلق قدرًا ورفعة، ومع ذلك كان يفعلها، ويحرص عليها.

٨٦. كان ﷺ يأخذُ من لحيتِه من عرضِها وطولِها.

لتقرب من التدوير؛ لأن الاعتدال مطلوب والطول المفرط يشوه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين. وفي البخاري: كان ابن عمر إذا حجَّ أو اعتمرَ قبضَ على لحيته فما فَضَلَ أَخَذَه، أي قصَّه. وفي المناوي على الجامع الصغير: وكان بعض السلف يقبض على لحيته فيأخذ ما تحت القبضة. وقد ورد في المنع من حلق اللحى جملة من الأحاديث الثابتة في البخاري وغيره عن النبي ﷺ منها: احفوا الشوارب وأعفوا اللحى، ومنها: خالفوا المجوس؛ لأنهم كانوا يقصرون لحاهم ويطولون الشوارب، ومنها: جزُّوا الشوارب وأرخوا اللحى، ومنها:

قُصُّوا الشوارب وأعفوا اللحى، ومنها: أعفـوا اللحـى وجُـزُّوا الشواربَ، ولا تَشَبَّهوا باليهود والنـصارى، ومنهـا: عـشْرٌ مـن الفطرة (أي من سنن الأنبياء) قَصُّ الشارب، وإعفـاءُ اللحيـة، والسواكُ، واستنشاقُ الماء، وقـصُّ الأظفـار، وغـسْلُ الـبراجم (مفاصل الأصـابع)، ونتـفُ الإبـط، وحلـقُ العانـة، والختـانُ، وانتقاصُ الماء، أي الاستنجاء به.

وقد اختلف أقوال الفقهاء وآراؤهم أخـذًا مـن هـذه الأدلـة، فـذهب جمهورهم وفي مقدمتهم الأحنـاف إلى تحـريم حلـق اللحـى، وذهـب القليل منهم وفي مقدمتهم أكثرية الـشافعية إلى كراهـة حلـق اللحـى. ولكن الجميع قد اتفقوا ولم يختلفوا في أن هذه الشميلة هي صفة النبـي ﷺ الكامل، وأنها صفة كمال ورجولة، وأن حلقهـا بغـير عـذر صـفة نقصان وأنوثة، وأن اللحية من الطبيعة الفارقة في أصل خلقة الإنسان بين الرجال والنساء، حتى وفي خلقة غير الإنسان؛ فالأسد له فارق في وجهه عن لبونه والديك له عرف يفرقه عن دجاجتـه والعـصفور لـه رسمة في صدره تميزه عن عصفورته وهكذا...

ومما يروى أن عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها كان في بعض حلفها: لا والذي زيَّنَ الرجالَ باللحى. هذا وإننا نسأله تعالى أن يصرف عنا الضعف والشيطان والهوى، وأن يرزقنا ذوقًا لحلاوة سنة المصطفى.

٨٧. كان ﷺ يَبعَثُ إلى المَطاهر فَيُؤْتَى بالماء فيشربُه يرجو بركةَ أيدي المسلمين، وكان إذا صلى الغداةَ جاءَه خَدَمُ أهلِ المدينةِ بآنيتهم فيها الماءُ، فما يُؤتى بإناء إلا غَمَسَ يدَهُ فيه.

المطاهر الأماكن التي فيها آنية المياه المعدة للوضوء، أي كان يشرب من الماء الذي أخذ منه المتوضئون لطهارتهم، ومس أيديهم، (وليس المراد الماء المستعمل في الوضوء) يفعل ذلك تبركًا بآثار المتطهرين للعبادة، وهذا شرف عظيم لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة، ٢٢٢)، وكذا كان الصحابة يتبركون بآثاره، بل هم أولى منه لحاجتهم إليه دونه، ولكن الكامل يقبل زيادة الكمال. فيرسلون إليه آنية الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، وكذلك كانوا يأتونه بمواليدهم الصغار ليبرك عليهم ويحنكهم ويدعو لهم. ويؤخذ

من هذه الأحاديث الثابتة أن التبرك بالصالحين وبآثارهم ثابت ونافع، ولا ينكره إلا جاهل أو مكابر.

٨٨. كان ﷺ يَتَيَمَّمُ بالصعيدِ، فلم يَمْسَحْ يدَيه ووجهَه إلا مرةً واحدةً.

الصعيد هو وجه الأرض أو هو التراب، فيتيمم فاقد الماء أو العاجز عن استعماله كمرض مثلاً بالتراب كما ذهب إليه الشافعية ومن قال بقولهم، وهو الأفضل مراعاةً للخلاف، أو يتيمم بكل ما كان من جنس الأرض كالحجر والبلاط ولو لم يكن عليه تراب، وهذا أيسر كما ذهب إليه الأحناف ومن قال بقولهم. فإذا أراد أن يتيمم نوى الطهارة، ثم وضع كفيه على التراب أو الحجر يُقْبل بهما ويدبر، ثم مسحَ وجهَه مرةً مستوعبًا، ثم وضَعَ كفيه مرةً ثانيةً كالأولى، ثم مسحَ يديه إلى المِرفَقَينِ مرةً مستوعبًا أيضًا، وليس فيه تثليثُ المرّات كالوضوء، بل الزيادة على المرة مكروهة باتفاق، إلا إذا لم تستوعب المسحة الأولى فلا بأس في التكرار.

٨٩. كان ﷺ يجعلُ يمينَه لأكلِهِ وشُرْبِهِ ووضوئِه وثيابه وأخْذِهِ وعَطائِهِ؛ وشِمَالَهُ لما سِوى ذلك.

فكل ما كان من باب التكريم والتشريف مثل المصافحة والأكل والشرب والوضوء... فهو باليد اليمنى، وكل ما كان بعكس ذلك كامتخاط واستنجاء فهو باليد الشمال، فما أجمل هذه القسمة من النبي ﷺ. وكذلك جاء في الحديث الذي بعده أنه ﷺ كان يحب التيامن في شأنه كله: في طهوره (الغسل والوضوء) وتنعُّله (لبس النعل وهو الحذاء، ومثل هذا لبس الجرابات) وترجُّله (تسريح شعره)، وقوله: «ما استطاع» يفيد أنه لو عجز عن هذا الترتيب، كأن كان في اليمنى أو في الشمال علة عمل حسب استطاعته، ولا مخالفة في ذلك.

٩٠. كان ﷺ يُحِب التيامُنَ ما استطاعَ في طَهُورِهِ وتنعُّلِهِ وتَرَجُّلِهِ، وفي شأنِهِ كلِّهِ.

٩١. كان ﷺ يَسْتَحِبُّ الصلاةَ في الحِيطانِ (البساتين)، وكان يُعجبه النظرُ إلى الخضرة والماء الجاري.

ذكر العلماء أوجهًا لهذا الاستحباب: مثل الخلوة عن الناس، أو حلول بركة الصلاة في ثمار البساتين؛ لأن الصلاة تجلب الرزق، قال تعالى: ﴿وأْمُرْ أهلَكَ بالصلاةِ واْصْطبرْ عليها لا نَسألُكَ رزقًا نحن نرزُقُكَ

والعاقبةُ للتَّقْوَى﴾ (طه، ١٣٢)، أو الإكرام للمزور بالصلاة في مكانه، إلى آخر هذه الأوجه. وهذا لا ينافي أفضلية الصلاة في المساجد، لأن ما تقدم هو في الصلاة النافلة، أو هو في الفريضة التي حضرت وكان المصلي في تلك الأماكن. أما قوله: وكان يعجبه... الخ فهو ظاهر؛ لأن الخضرة لون بهيج جعله الله سبحانه من ألوان ثياب أهل الجنة، والماء الجاري من صفات أنهار الجنة، وقال قائلهم: ثلاثة تذهب عنا الحزن، الماء والخضرة والشكل الحسن.

٩٢. كان ﷺ يصلي والحَسَنُ والحُسَينُ يلعبانِ ويقعدانِ على ظهرِه.

هذا من كمال شفقة النبي ﷺ بالأولاد والذرية، ولذا جاء في الحديث: من كان له صبي فليتصابَ له، أي فليتصاغر له بلطف ولين ليفرحه. ومن لطيف ما ورد كما سمعته من بعض أساتذتي الثقات أن عليًا كرم الله وجهه دخل مرة على النبي ﷺ فرأى ولدَيه الحسنَ والحسين رضي الله عنهما قد ركبا ظهر النبي ﷺ فقال مداعبًا: نعْمَ الجَمَلُ جملُكما، فأجابه ﷺ بقوله: ونعماهما أيضًا. أما الذي رأيته في كتاب المراح في المزاح للغزي فهو: ... وعن جابر قال: دخلتُ على النبي ﷺ والحسنُ والحسينُ على ظهره وهو يمشي بهما على أربع ويقول: نعم الجَمَلُ

جملُكما ونعم العدلانِ أنتما. إلى آخر ما ورد في السنة المطهرة من وافر لطافته بالأولاد وعظيم رحمته.

٩٣. كان ﷺ يَغتَسِلُ يومَ الجُمُعَةِ، ويومَ الفِطْرِ، ويومَ النحْرِ، ويومَ عَرَفَةَ، وكان يُقَلِّمُ أظْفارَه ويَقُصُّ شاربَه يومَ الجمعةِ قبلَ أن يَروحَ إلى الصلاةِ، وكان يُعرَفُ بريحِ الطيبِ إذا أقْبَلَ.

لذا كان الغسل في هذه الأيام سنة لأداء العبادة على أتم وجه من النظافة، ولأنها أيام تجمع المؤمنين في أشرف البيوت وأطهر المنازل، فلا يتأذى أحد منهم برائحة كريهة من أحد، ولذا طلب من كل واحد أن يتنظف؛ فيقلم أظفاره ويقص شاربه ويتطيب ويلبس أحسن وأنظف ما عنده من الثياب.

٩٤. كان ﷺ يُعلِّمُهم من الحُمَّى والأوجاعِ كلِّها أن يقولوا: باسمِ الله الكبيرِ، أعوذُ بالله العظيمِ، من شرِّ كلِّ عِرْقٍ نَعّارٍ، ومن شَرِّ حَرِّ النارِ.

هذا من الطب النبوي الذي يلزمه الاعتقاد الصادق، ولا يمنع من تعاطي العلاج العادي، كما سبق شرحه في بعض الشمائل، والعرق

النعار هو ما يتفجر منه الدم، أو هو ما يرتفع دمه ويعلو، (وهو ما يعبر عنه الطب الحديث بالنزف أو ارتفاع الضغط).

٩٥. كان ﷺ يُفْطِرُ على رُطُباتٍ قبلَ أن يصليَ، فإن لم تكنْ رطباتٍ فَتمراتٍ، فإن لم تكن تمراتٍ حَسَا حُسُواتٍ من ماءٍ، وكان لا يُلهيهِ عن صلاةِ المغربِ طعامٌ ولا غيرُه.

في هذا الحديث أنه يندب للصائم أن يسارع إلى الإفطار قبل الصلاة، ولكن يفطر على شيء يسير، والأفضل أن يكون حلوًا وأن يكون رطبًا، (وهو الناضج من ثمر النخل) فإن لم يكن فتمرًا (وهو الجاف من ثمر النخل) وأن يكون وترًا، وإلا فعلى قليل من الماء، ثم بعد ذلك يشرع في صلاة المغرب، وبعدها يعود إلى الطعام، لا كما يفعله بعضهم من تأخير صلاة المغرب، وخصوصًا في رمضان إلى قرب العشاء أو اشتباك النجوم، فإن ذلك مما يكره تحريمًا، وعلى بعض الأقوال لغير الأئمة الأربعة، لا تصح صلاة المغرب لأنه ذهب وقتها إذ ذاك، فليسمع هذا وليعلمه بعض من يؤخرون صلاة المغرب طوال شهر رمضان من أجل طعامهم وحديثهم في أثنائه. وهكذا فإن صلاة

واحدة (وهي فرض) تعادل شهر رمضان من أوله إلى آخره (في الفرضية).

٩٦. كان ﷺ يُقبِلُ بوجهِه وحديثِه على شرِّ القومِ يَتَألَّفُهُ بذلك.

هذه سياسة نقية محمدية، كان يستعملها ﷺ في بعض أحيانه مع نفر من الأشخاص الذين كانوا من المترفعين، والرؤساء المتسلطين، ومن الأعراب الأجلاف الجاهلين، فكان الرسول ﷺ يستعمل معهم هذه السياسة الحكيمة، يتألف بها قلوبهم، وليرغبهم في محاسن دين الإسلام وليحببهم بأخلاق أهل الإيمان؛ لهذا كان يبش في وجوههم، ويقبل بكلامه وحديثه عليهم، وقد أعطاه الله تعالى ما أراد، فكل هؤلاء أو أكثرهم تركوا هذا الشموخ الجاهلي وهذا العنفوان وأقبلوا على الرسول وتحلوا بحلية الإيمان. ففي البخاري وغيره: عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن عيينة بن حصن الفزاري (وكان يقال له الأحمق المطاع) استأذن على النبي ﷺ، فلما علم به قال: ائذنوا له فبئس أخو العشيرة، فلما جلس تطلَّقَ النبيُّ ﷺ في وجهه وانبسط إليه وألان له القول، فلما خرج قالت له عائشة: يا رسولَ الله قلتَ ما قلتَ ثم ألنتَ له القول وانبسطتَ إليه، فقال: يا عائشةُ متى عهدتِني فحّاشًا؟ إن شرَّ

الناس عند الله منزلةً يومَ القيامة مَنْ تَرَكَهُ الناسُ اتِّقاءَ شرِّه. وفي بعض الروايات: إنا لَنَبَشُّ في وجوه قوم وقلوبُنا تلعنُهم.

٩٧. كان ﷺ يَتَخَوَّلُ أصحابَه بالموعِظة.

يتخول أصحابه أي يتعهدهم وقتًا بعد وقت، لئلا يسأموا ويملوا؛ ففي البخاري وغيره أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه كان يذكر الناسَ في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن لَوَدِدْتُ أنك ذكرتَنا كلَّ يوم، قال: أمَا إنه يمنعُني من ذلك أني أكْرَهُ أن أُمِلَّكم، وأني أتخوَّلُكم بالموعظة كما كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلُنا بها مخافةَ السآمة علينا. وهذا منه ﷺ أسلوب حسن للمتعلمين كي ينتفعوا بالمواعظ التي تلقى عليهم ولا تذهب هدرًا، ويؤخذ منه أن على العلماء والوعاظ أن يتحروا في وعظهم وإرشادهم أوقات الفراغ والنشاط، كالمجتمعات في المساجد والبيوت وغيرها ولاسيما مواسم العبادة والأيام الفاضلة التي يكون الناس متأهبين للسماع مشوقين إلى المواعظ؛ فتقع منهم الموقع الحسن وتعطي ثمرتها المرجوة في السماع والحفظ والعلم والعمل.

٩٨. كان ﷺ يُخيطُ ثوبَه، ويَخْصِفُ نعلَه، ويَعْمَلُ ما يعملُ الرجالُ في بيوتِهم.

هذا إرشاد منه ﷺ للتواضع وترك التكبر، وتشريف للمهن وأربابها، حيث لا تحتقر الأعمال ولا الصناعات، مهما كانت وضيعة بحسب ظاهرها، فهي شريفة بحسب حقيقتها وعموم نفعها؛ فالخياطة والسكافة والصباغة وما شاكلها من المهن التي يحتاج إليها الناس توازي الصياغة والطبابة والتجارة، حتى السفارة والإمارة والوزارة وما شابهها في النفع العام. فضرب الرسول ﷺ أروع الأمثال في رفع قيمة العمل والعمال؛ فخاط ثوبه، وخصف نعله أي خرز حذاءه وأصلحه. ثم شرع العمل البيتي (عندما تدعو الحاجة إليه) رحمةً بالعيال، ومعونةً للأهل والنساء وليستغنيَ البيت عن عمل الأغراب من رجال ونساء وليطهر النفوس من رذيلة الكبرياء. فصلى الله عليك يا من شرَّفتَ بهذه الشميلة عمل العمال وكنت قدوة للعاملين، وأنلت المُعِينين في بيوتهم لقب المتواضعين، وسبحان من قال في شمائلك: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾ (القلم، ٤).

٩٩. كان ﷺ يُقطِّع قراءتَه آيةً آيةً: ﴿الحمدُ لله ربِّ العالمينَ﴾ ثم يقف، ﴿الرَّحمنِ الرَّحيمِ﴾ ثم يقف، وكان يَمُدُّ صوتَه بالقراءة مدًّا.

أي يقف عند آخر كل آية، ولا يصِلُ الآيات بنفس واحد كما يفعله بعضهم؛ لأن هذا الوصل من السرعة والعجلة التي قد تذهب بالتدبر والتفكر في معاني الآيات، وعندها يفقد القارئ والمصلي الحضور والتجلي والمقصود من القراءة، وكذا كان ﷺ قبل أن يقف عند آخر الآية يمد صوته بالقراءة مدًا ثم يقف، وهذا ما يسميه أهل التجويد في بعض الآيات مدًا عارضًا للسكون.

١٠٠. كان ﷺ يَكْرَهُ التثاؤبَ في الصلاة.

لأن التثاؤب ينشأ عن التمطّي والفتور وينبعث غالبًا عن الامتلاء من الطعام المفضي إلى التكاسل عن العبادة والجالب للنوم. وعن هذا قيل: من أكل كثيرًا شرب كثيرًا فنام كثيرًا فاته خير كثير. ويطلب ممن غلبه التثاؤب أن يكظم ما استطاع، وأن يضع ظهر يده اليسرى على فمه ولا يرفع صوته. ففي البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: إذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه (أي فمه) فإن الشيطان يدخل مع التثاؤب. وفي

رواية: التثاؤبُ من الشيطانِ، فإذا تثاءبَ أحدُكم فلْيَـرُدَّه ما استطاعَ، فإنَّ أحدَكم إذا قال: (هـا) ضَـحِكَ منه الـشيطانُ. وقـال مـسلم بـن عبدالملك: ما تثاءبَ نبيٌّ قط، وإنهـا مـن علامـة النبـوة (فائـدة لـدفع التثاؤب مجرَّبة)، قال العلامة ابن عابدين في حاشـيته **رد المحتـار عـلى الدر المختار** في الجزء الأول: فائدة: رأيت في شرح تحفة الملوك المسمى بهدية الصعلوك ما نصه: قال الزاهـدي: الطريـق في دفـع التثـاؤب أن يخطر بباله أن الأنبياء عليهم الـصلاة والـسلام مـا تثـاءبوا قـط، قـال القدوري: جرَّبناه مرارًا فوجدناه كذلك (اهـ)، قلت: وقد جربته أيضًا فوجدته كذلك.

١٠١. كان ﷺ يَلْحَظُ في الصلاةِ يمينًا وشمالاً، ولا يَلوي عُنُقَه خلفَ ظهرِه.

ذكر الفقهاء أن الالتفات في الصلاة ثلاثـة أنـواع: ١. التفـات مفـسد للصلاة وهو تحويل الصدر عن القبلة، ٢. والتفات مكروه تحريمًا وهو التفات الوجه وحـده عـن القبلـة، ٣. والتفـات مكـروه تنزيهـا وهـو التفات البصر فقط، فإذا حوَّل المصلي بصره ولحظ يمينـا وشـمالاً كُـرِهَ ذلك تنزيهًا، لتركه النظر المستحب وهو نظره في حال القيام إلى موضع

سجوده لأنه من دواعي الخشوع، فإذا شتَّت البصر يمنةً ويسرةً شُتِّتَ القلبُ وذهب خشوعه، فيستحب للمصلي أن ينظر إلى موضع سجوده قائمًا، وإلى ظهر قدميه راكعًا، وإلى أرنبة أنفه ساجدًا، وإلى حِجْره (ركبتيه) قاعدًا، وإلى منكبيه (كتفيه) مسلِّمًا. وهكذا كانت صلاة النبي ﷺ في أتم خشوع. أما إذا دعت حاجة في بعض الأوقات إلى أن يلحظ المصلي ببصره كأن يلحظ إنسانًا ينتظر مجيئه كان جائزًا بلا كراهة كما فعله النبي ﷺ؛ فقد ورد أنه بعث فارسًا طليعة إلى العدو ثم شرع في الصلاة، وجعل يلحظ فيها إلى الطريق أو الشِعب الذي تجيء منه الطليعة. ولذا قال الفقهاء يجوز للإمام أن يلحظ إلى المصلين ليسترشد كم صلى أو أيقعد أم يقوم إذا اشتبه عليه الأمر.

١٠٢. كان ﷺ يكتحِلُ بالإثمِدِ وهو صائمٌ.

دلَّتْ هذه الشميلة على أن الكحل ومثله كل ما يدخل في العين كالقطرة لا يفسد الصوم، كما ذهب إليه جمهور الفقهاء، وعللوه بأنه لا منفذ من العين إلى جوف الإنسان، والمفطر إنما هو الداخل من طريق طبيعي كالفم والأنف والدبر، ولا عبرة بما يدخل من طريق المسام والامتصاص، وعلى هذا فالغُسل لا يفسد الصيام ولو أحسَّ المغتسل

ببرد الماء ووصوله إلى جوفه. وعن هذا الأصل حكم الفقهاء بأن إبرة الدواء التي يضربها الطبيب أو غيره في جسم الصائم لا تفسد الصيام سواء كانت في العضل أو في العرق؛ لأنها تدخل الجسم من غير الطريق المعتاد، ولكن إن أمكن أن تؤخر إلى ما بعد الإفطار مساء، وبخاصة إبرة العِرْق، فهو أحسن لأنه من باب الورع والاحتياط.

١٠٣. كان ﷺ ينام وهو جُنُبٌ ولا يَمَسُّ ماءً، وكان يُدرِكُهُ الفجرُ في رمضانَ من غيرِ حُلُمٍ فيغتسلُ ويصومُ، وكان يُصبحُ جُنُبًا من جِماعٍ لا من حُلُمٍ ثم لا يُفطِرُ ولا يَقضِي.

من محاسن الشريعة الإسلامية أنها تمتاز على غيرها من الشرائع في تيسيرها وعدم تحريجها على أهلها، ومن جملة تيسيرها هذه الشميلة التي فعلها النبي ﷺ بيانًا للجواز؛ وهي أنه يجوز للجنب أن ينام ولا يغتسل حتى الصباح، فإذا أصبح اغتسل ثم صلى. وكذلك يجري هذا الحكم في رمضان وفي أي صوم كان؛ فقد فعله ﷺ أيضًا بيانًا للجواز، فيجوز للمؤمن إذا قام للسحور وهو جنب أن يتسحر ثم يشرع في الغسل ولو أذن الفجر، ولا فساد لصيامه، فيغتسل ويصلي حتى ولو لم يدرك الصلاة حاضرًا صلاها قضاءً بعد الشمس، وصومه صحيح.

ومثل ذلك إذا نام نهارًا في رمضان أو في غيره فاحتلم يغتسل ولا فساد لصومه؛ لأن الجنابة تنافي الصلاة ولا تنافي الصوم.

فليتنبه لهذا بعض الناس الذين يظنون أن الصوم يفسد بالاحتلام، وهو خطأ، كما أخطأ بعضهم أيضًا فظنَّ أن الجماع في النهار لا يفسد الصوم، فتسحر في رمضان ونوى الصيام ثم بعد أن صلى الصبح نام مع زوجته وجامعها (لا حياء في الدين) ظانًا أن الجماع لا يضر الصوم، ولما سألَني وبيَّنتُ له أن الصوم قد فسد تعجب وقال: إننا لم نأكل ولم نشرب. فليتنبه لهذا، فإن الجماع في رمضان بعد الفجر، أو في النهار مع تذكر الصوم محرم وكبيرة توجب الإثم والقضاء والكفارة بإجماع العلماء على كل من الرجل والمرأة؛ لحديث الأعرابي الذي جامع زوجته في رمضان ثم جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسولَ الله هلكتُ وأهلكتُ، فقال له: وما أهلكَكَ؟ قال: وقعتُ على أهلي في رمضان إلى آخر الحديث، فعلَّمه وأمره بالكفارة. (رواه البخاري ومسلم وغيرهما). أما إذا جامع أو أكل أو شرب ناسيًا فلا فساد لصومه، فإنْ تذكَّرَ تركَ في الحال، فإنْ مكث بعد التذكُّر فسدَ صومُه وحَرُمَ فِعله،

وإن لم يتذكر حتى تمَّم جماعَهُ أو أكْلَه أو شُربَه، فإنما هي ضيافة ربانية ولا فساد لصومه.

هذا، والأفضل للإنسان أن يعتاد الطهارة، فيغتسل بعد الجنابة وينام طاهرًا، كما كانت عادة النبي ﷺ في غالب أحيانه. ولذا جاء في الجامع الصغير قوله: طهِّروا هذه الأجساد طهَّركم الله، فإنه ليس عبد يبيت طاهرًا إلا بات معه ملك في شَعاره (أي في ثوبه أو قميصه الملاصق لجسده) لا يتقلب ساعة من الليل إلا قال: اللهم اغفِرْ لعبدك فإنه بات طاهرًا.

١٠٤. كان ﷺ يُوتِرُ من أولِ الليل وأوسَطِهِ وآخِرِهِ.

الوتر هو ما يُصلى بعد فرض صلاة العشاء وسنته، وهو واجب عند أبي حنيفة النعمان رحمه الله تعالى على كل مكلف، ولا يحل تركه بلا عذر، فإن تركه وجب عليه قضاؤه، وعند غير أبي حنيفة من الأئمة هو سنة مؤكدة من آكد السنن. وقد ورد في الأحاديث الصحيحة الأمر به والوعيد والتحذير من تركه، فمنها قوله: الوتر حق فمَن لم يوتر فليس

مني، (قاله ثلاثًا)، وقوله: يا أهل القرآن أوتروا فإن الله وتر يحب الوتر، إلى آخر ما ورد.

والوتر ثلاث ركعات بتسليمة واحدة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى؛ يقرأ في كل ركعة فاتحة وسورة، فإذا فرغ من القراءة في الثالثة رفع يديه وكبر وقرأ دعاء القنوت قبل أن يركع، ويصح بكل دعاء والأفضل دعاء عبدالله بن مسعود رضي الله عنه الذي اختاره أبو حنيفة وهو: اللهم إنا نستعينك ونستهديك... الخ، فإن لم يحفظه قال: ربِّ اغفِرْ لي ثلاثًا. والدعاء في الوتر واجب، وعند الشافعي رحمه الله تعالى الوتر أقله ركعة واحدة وأكثره إحدى عشرة ركعة. أما وقته فالشميلة نوَّعته: من أول الليل ووسطه وآخره، ولكن ورد التفصيل في حديث آخر، وحاصله أن من رجا أن يقوم آخر الليل فالأفضل له تأخير الوتر إلى آخر الليل ليختم عمل الليل على وتر، كما ختم عمل النهار على وتر وهو المغرب، وفي الحديث الصحيح قوله: اجعلوا آخرَ صلاتكم بالليل وترًا. ومن لم يطمع أن يقوم آخر الليل فالأفضل له أن يوتر أول الليل، ففي بعض طرق الحديث يقول أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: أوصاني خليلي أبو القاسم ألا أنام إلا على وتر.

هذه الشمائل الثلاث الأخيرة تعد من الوصايا المهمة التي تكلم بها النبي ﷺ في آخر لحظات حياته، والإنسان الكامل لا يتكلم في مثل هذا الموقف موقف الموت إلا بأفضل وأنفع ما عنده.

١٠٥. كان آخرَ كلامِ النبي ﷺ: الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا اللهَ فيما مَلَكَتْ أيمانُكم.

فالوصية الأولى تتفرع إلى فرعين: الفرع الأول في الصلاة بقوله ﷺ (الصلاةَ الصلاةَ) كررها للملازمة والمحافظة عليها، وللترغيب في إقامتها بأوقاتها وفرائضها وسننها وخشوعها، وللتحذير من تضييعها والتهاون بها. وهذا لأن الصلاة لها أهميتها في الإسلام؛ فهي أشرف موضوع وأعلى فريضة فيه بعد الشهادتين، وهي أول ما افترضه الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة، وهي أول ما يرفع من أعمالها، وهي أول ما تسأل عنه غدًا يوم القيامة، والصلاة هي الفارق بين الصلاح والطلاح، وبين الخير والشر، بل وهي الفارق بين الكفر والإيمان. ففي جملة من الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ أنه قال: العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر، وقال أيضًا: بين الكفر والإيمان ترك الصلاة، وقال أيضًا: إذا رأيتم الرجلَ يعتاد المساجدَ فاشهدوا له

بالإيمان، إلى آخر ما هنالك من الفضائل التي تتعلق بالصلاة، فلهذا كانت من وصية الرسول ﷺ في آخر عهده وفي آخر حياته.

والفرع الثاني من الوصية الأولى تقوى الله فيما ملكت الإيمان بقوله: اتقوا الله... الخ أي من العبيد المملوكين والأرقاء، وما ألحق بهم مما يملك الإنسان من الحيوانات والطيور والبهائم وسائر العجماوات التي لا تتكلم، وكذا ما كان تحت تصرفه وإرادته يديره ويوجهه كيفما أراد؛ لأن (ما) للعموم والشمول، فهي على هذا شاملة لكل ما يسيطر عليه الإنسان، فتشمل أهله وأولاده وكل ما له ولاية ورعاية عليهم، وكذلك تشمل عمّاله وصُنّاعه وأجراءه؛ فهي توصي الآباء ومن لهم حق الرعاية وأرباب العمل بتقوى الله فيمن تحت تصرفاتهم. ولا يبعد أن تشمل عكس ما ذكر في بعض الظروف والحالات؛ فتشمل مثلاً الآباء إذا صاروا لعجزهم تحت رعاية أبنائهم، فهي توصي الأبناء بالآباء، وكذا تشمل أرباب العمل وأصحاب المعامل إذا قَدِرَ العمالُ إيقاف العمل وإلحاق الضرر بهم بغير حق كما في زمننا هذا، فهي توصي العمال بأرباب العمل، وهكذا.

فهذه الشميلة على غاية من البلاغة، وقد قال العلماء: هذا الحديث من جوامع الكلِم التي أُوتيها النبي ﷺ، وفي الجامع الصغير أن النبي ﷺ قال: أُعطيتُ جوامعَ الكلِم واختُصِرَ لي الكلامُ اختصارًا.

١٠٦. كان آخِرَ ما تكلَّمَ به النبي ﷺ أنْ قال: قاتَلَ اللهُ اليهودَ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ، لا يَبْقَينَّ دِينانِ بأرضِ العربِ، أو بجزيرةِ العربِ.

هذه الوصية الثانية التي نبه بها الرسول ﷺ أمته وحذرهم أن يفعلوا فعل اليهود والنصارى الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد أي جعلوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيمًا لها، وهذا من المحرمات ونوع من الشرك؛ لأن السجود لا يكون إلا لله، فالسجود للقبور أو للعظماء هو عَود إلى الجاهلية ورجعية إلى الأصنام بعد أن محا آثارَها الإيمانُ وأزال معالَمها الإسلامُ. فلذلك، ولدرء هذا الخطر ولمكافحة هذا الوباء قال: لا يبقينَّ دينانِ بأرض العرب، أو بجزيرة العرب، لأنه لا يجتمع، بل ولا يجوز أن يجتمع الشرك والتوحيد، ولا الكفر والإيمان. وفي شرح المناوي على الجامع الصغير: وقال ابن جرير الطبري: يجب على الإمام إخراج الكفار من كل مصر غلب عليه الإسلام حيث لا ضرورة

بالمسلمين، وإنما خص أرض العرب لأن الدين يومئذ لم يتعدَّها، قال: ولم أر أحدًا من أئمة الهدى خالف في ذلك.

ويؤخذ مما تقدم ومما سيأتي أن أهل الأرض اليوم وإلى أن تقوم الساعة بلا استثناء مدعوون إلى اعتناق الإسلام، وإلى الاعتراف بنعمة الإيمان بمحمد ﷺ صاحب الرسالة العامة وصاحب الرحمة الشاملة التي منَّ الله بها على الخلائق أجمعين؛ قال تعالى: ﴿ومَا أَرسَلناكَ إلاّ رَحمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، ١٠٧)، وقال تعالى: ﴿قُلْ يا أَيها الناسُ إنّي رسولُ الله إليكم جميعًا﴾ (الأعراف، ١٥٨)، وقال تعالى: ﴿ومَا أرسلنَاكَ إلاّ كافةً للناسِ بشيرًا ونذيرًا﴾ (سبأ، ٢٨)، وقال تعالى: ﴿ومَن يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ دينًا فلن يُقبلَ منه وهوَ في الآخِرةِ من الخاسِرينَ﴾ (آل عمران، ٨٥).

وفي الحديث المتواتر: أُعطيتُ خمسًا لم يُعطَهن أحدٌ من الأنبياء قبلي... ثم ذكر منها: وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصةً وبُعثت إلى الناس عامةً.

١٠٧. كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ: جلالَ ربيَ الرفيعَ فقد بَلَّغْتُ، ثم قَضَى.

الوصية الثالثة وهي آخر ما تكلم به ﷺ أن قال: جلال ربي الرفيع، أي أختار وأحب جلال ربي العالي، فقد بلغت أي الرسالة إلى الأمة وأديت لها الأمانة، ثم قضى: أي انتقل إلى جوار ربه، فلم يتكلم بعدها بشيء. وجاء في بعض الروايات أن قال قبل أن يقضي: اللهم الرفيق الأعلى، أو: بل الرفيق الأعلى من الجنة، أي بل أختار الرفيق الأعلى (والرفيق الأعلى جماعة الأنبياء الذين يسكنون أعلى عليين).

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُخَيَّر. وفي بعض الروايات للبخاري وغيره عن عائشة أيضًا قالت: قُبِضَ رسولُ الله ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سَحري ونحري وجَمَعَ الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل عليَّ أخي عبدالرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفتُ أنه يعجبه ذلك، فقلت له: آخذه لك؟ فأومأ برأسه أنْ نعم، فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه، فقلت: أُلينُه لك؟ فأومأ برأسه أن نعم فَلَيَّنتُه، وكان بين يديه رَكْوةُ ماء

(إناء صغير من جلد) فجعل يُدخل يده فيها ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات، ثم نصب يده ويقول: الرفيق الأعلى، فقلتُ: إذن والله لا يختارنا.

ويؤخذ من هذه الشميلة أنه يجب على المؤمن أن يقتدي برسول الله ﷺ بأن يؤدي الأمانة، ويخلص لله العبادة والطاعة التي خلقه الله تعالى لأجلها، والتي جاء إلى الدنيا ليتشرف ويتحلى بعملها، وأن يستقيم عليها حتى يأتيه اليقين (وهو الموت)، قال تعالى: ﴿واْعْبُدْ ربَّكَ حتى يأتيَكَ اليقينُ﴾ (الحجر، ٩٩). وعندها يرى المؤمن ما أعد الله له من الكرامة وحسن اللقاء، فيحب لقاء الله ويرجحه على أهله وأولاده وماله، بل وعلى الدنيا بحذافيرها، وكأنه أخذ حظًا من هذه الشميلة شميلة المصطفى ﷺ، وهي الرفيق الأعلى.

وقد جاء في الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم وغيرهما قوله: «من أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومن كَرِهَ لقاءَ اللهِ كرهَ اللهُ لقاءَه».

وما أحسن قول القائل في هذا المقام:

وَلَدَتْكَ أمُّكَ يا بنَ آدمَ باكيًا

والناسُ حولَكَ يَضحكونَ سُرورا

فاْعْمَلْ لِنفسِكَ أن تكونَ إذا بَكَوا

في يومِ موتِكَ ضاحكًا مسرورا

***